

الخطاب الديني وأبعاده المقاصدية

بقلم : فضيلة الأستاذ : عاشور بوقلقولة
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية - أدرار -

المقصود بالخطاب كل فهم للإسلام أو عمل من أجله، فالخطبة الدينية والدرس المسجدي خطاب ديني، والمحاضرة والندوة خطاب ديني، والمجلة الإسلامية، أو الكتاب الإسلامي. خطاب ديني، المعرض والرسم الكاريكاتوري، إذا كان يحمل مضمونا دينيا، فهو خطاب إسلامي، حملات التوعية والإرشاد والوعظ الديني، كذلك، فالخطاب الديني شامل للإنسان والزمان، كشمول الشريعة التي يركز عليها، فالشريعة كما قال أحد الدعاة: "إنها الشريعة التي امتدت طولا حتى شملت أباد الزمان، وامتدت عرضا حتى شملت آفاق الأمم، وامتدت عمقا حتى شملت شؤون الدنيا وشؤون الآخرة" فالخطاب الديني يعنى بالإنسان، من قبل ولادته إلى ما بعد

وفاته، يهتم به جسما وقلبا وعقلا. وهو يعنى بالحياة الدنيا وبالحياة الأخرى فالدنيا عنده مزرعة للآخرة. وهو خطاب يتقاطع فيه السياسي والديني الاجتماعي والثقافي، العقلي والوجداني.

أما الأبعاد المقاصدية، فالمقصود بها الغايات والمصالح التي يتغاياها الشارع من خطابه للناس، فالخطاب الديني مقاصد وأهداف، مقاصد جزئية في كل حكم من أحكامه، ومقاصد كلية يتأسس عليها كيان الأمة وكيان المجتمع. والحديث عن الأبعاد المقاصدية، يسوقنا إلى الكلام عن موقف الناس من هذه المقاصد والأهداف.

الخطاب الديني اليوم إما خطاب ظاهري حرفي، يلغى الفكر العقل ويقف

والمطلوب من الإمام أن ينهج في خطابه نهج الوسطية والاعتدال نهج يوظف المقاصد في الدعوة إلى الإسلام وفي الدفاع عنه.

نحن في زمن تبرجت فيه الفلسفة وتزينت الادبيولوجيات فلا بد من استعمال المقاصد والغايات للكشف عن حقائق الإسلام ورد أباطيل خصومه، ليكشف عن حقيقة الإسلام، كما أراده الله في كتابه وعلى لسان رسوله، ولن يتحقق ذلك إلا بوجود جملة الاعتبارات والخصائص من أهمها:

1- **وفاقية الخطاب:** هو أن الخطاب الديني، خطاب يجمع ولا يفرق، يقرب ولا يبعد، يسدد ويقارب، فأعداء الأمة يواجهونها مجتمعين، فلا يمكن الانتصار عليهم ونحن في حالة افتراق.

2- **صدقية الخطاب:** والمقصود بالصدقية الإخلاص للمبدأ والفكرة في الداخل والخارج، أي بين المسلمين وغير المسلمين، إن الإسلام لن يكسب نفوساً جديدة إلا بهذه الصدقية.

3- **واقعية الخطاب:** وتتجلى مظاهر

بعيدا عن مقصود الشارع وغايته، وإما خطاب حدائي يتمسح بالمقاصد لإلغاء الشرع والمقاصد، فهو خطاب يقدم العقل على الشرع والواقع على النص، وهذان الخطaban لا يمثلان حقيقة الخطاب الإسلامي، ولا يعبران عن رسالة الإسلام الصالحة للزمان والإنسان والمكان. وهناك خطاب ثالث يبجل النصوص ويحترم الواقع والعقل، والدين - عنده - لا يتعارض مع العلم، وصريح المعقول لا يخالف صحيح المنقول - على حد تعبير ابن تيمية - فهو خطاب يوازن بين النص والمصلحة، فلا يقيم تعارضا بينهما، فالمصلحة الحقيقية شريعة، والشريعة مصلحة.

هذا الخطاب هو الخطاب الذي يعبر عن حقيقة الإسلام، فالخطاب الديني الصحيح لا يكون إلا مقاصديا، والمقاصد الصحيحة لا تكون إلا ديناً، فالمقاصد ركن من الشريعة، وإلغاء المقاصد بالتجميد أو بالتفجير هو إلغاء للإسلام وللشريعة الإسلامية.

5- وجوب التسلح بجملة من أنواع
الفقه: فقه المآلات، فقه الأولويات، فقه
الموازنات...

6- مراعاة أحوال المكلفين: فالقاصد
كما يقول الشاطبي أرواح الأعمال،
والمقصد الشرعي من وضع الشريعة
إخراج المكلف عن داعية هواه حتى
يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبد الله
اضطارا.

ومن هذه المراعاة: أن يختلف الخطاب
للشباب عن الخطاب للشيخوخ، والخطاب
للمثقفين عن الخطاب لغير المثقفين،
أن يختلف الخطاب للفر د الواحد، إذا
تغيرت أحواله وظروفه، فالفتوى تتغير
بتغير الزمان والمكان والإنسان، ولا ينكر
تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان، وهذا
كان المنهج المتبع لدى السلف الصالح
وقد أخذوه عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم.

إن التسوية بين المختلفات
والمخالفة بين المتماثلات، أمر يناهض
المنقول ويخالف المعقول ومن هنا رأينا
الإمام الشاطبي لا يقف حيث وقف

هذه الواقعية فيما يلي:

التركيز على قضايا الناس وهمومهم، أو
ما يسمى بالقضايا الساخنة.

- امتلاك الحس التاريخي، والابتعاد عن
اللاتاريخية والماضوية، فلا ينبغي إحياء
الحديث عن المرجئة والمعتلة، وإغفال
الحديث عن الرأسمالية والديمقراطية
وحقوق الإنسان، فكل مسألة لا يبنى
عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم
يدل على استحسانه دليل شرعي - كما
قال الشاطبي -.

4- المرونة الذهنية والانفتاح على
الآخرين: والمقصود بهذا العنصر الثبات
والتمسك بالقطعيات والمرونة والتساهل
في الجزئيات والفروع، فلا تتحول الفروع
إلى أصول ولا الأصول إلى فروع، وإنما
يعطى لكل شيء حقه ووزنه، ومن هنا
رأينا ابن القيم يتفتح على الطوائف التي
عاصرها،

قال ابن القيم: (والبصير الناقد
من يضرب في كل غنيمة بسهم ويعاشر
كل طائفة على أحسن ما عندها).

إخراج الأمة من التخلف إلى التقدم،
ومن الغفلة إلى الصحو، ومن التشتت
إلى التجمع، ومن الضعف إلى القوة،
ومن الجمود إلى التجديد والاجتهاد.

إنه الخطاب الوسطي والبديل عن
فقه الجمود وعن فقه الجحود، عن فقه
التحجير وفقه التفجير.

الأصوليون في اعتبار تحقيق المناط العام
فقط، وإنما تجاوزه إلى ضرورة اعتبار
تحقيق المناط الخاص. فمصالح الناس
ومقاصدهم تختلف باختلاف الزمان
والمكان والإنسان.

إن الخطاب الديني بأبعاده
المقاصدية، هو الخطاب الذي يؤمل منه